نقد الأدب في لغة العرب

- ١ -

من ألف سنة ونيف مر بهذا الجبل الشامخ الذي تستظلون بوارف ظلاله في صميم الصيف شاعر من رواة قصائده الدهر، وهو راكب ناقة تسرع في سيرها والهزال يسرع في شحمها، مر بهذا الجبل الجليل والبرد قارس والسماء مثلجة فقال:

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

لبس الثلوج بها علي مسالكي فكأنها ببياضها سوداء

فلو قام أبو الطيب المتنبي من ضجعته القلقة وعاد إلى الضرب في مناكب الشام بواديها وحواضرها إبتغاء لأمر جل أن يسمى:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ما أبتغي جل أن يسمى

لو قطع المتنبي في يومنا هذا عقاب لبنان لما شكا من البرد ما شكاه من ألف سنة، لأنه يلبس أقبيته الملونة السبعة ويركب سيارة بدلاً من ناقته التي كانت تسئد - إسآدا ويغلق أبواب السيارة يمنة ويسرة فلا يصيبه شيء من شدة البرد وعصف الريح.

من ألف سنة حتى اليوم تبدلت الأرض غير الأرض والسموات،

والعالم كله جماده ونباته وحيوانه ما انفك يخرج من حال إلى حال في كل عصر من عصوره.

ما أعظم انقلاب العالم؛ ما أسرع العلم في خطوه!.

يقول الأستاذ «شارل ريشه» أحد أعضاء معهد باريز في كتابه «العالم»:

«يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الأنظار في سرعته، على أن العلم لا يزال في أول أمره فالعالم «أرخميدس» كان يجهل على، فضله، ما يعلمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية وأجهل تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم أموراً يجهلها العالم «غليلة» نفسه، ما بين العالم «فرانكلان» والعالم (أنشتين) مائة وخمسون سنة، فتصوروا مصير العلم في مائة وخمسين سنة، ما أعظم انقلاب الأفكار، لم يكن في القديم علم الأحافير ولا علم الجراثيم ولا فن التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حل الطيف الشمسي، فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن وما هو قرن ونصف قرن؟.

المشي غير وئيد، إننا نسير في معرفة الأشياء على سلسلة هندسية متصاعدة. وفي يوم من الأيام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة مهما اختلفت أشكالها».

هذا ما قاله (ريشه) في سير العلم، فالمادة تتبدل هيئاتها من عصر إلى عصر، إني أترك لرجال العلم أنفسهم الكلام على هذا

التبدل المادي وأستأذنكم في الكلام على تبدل أدبنا، ولكني لا أتصدى في هذا الموضوع إلا لوجه من وجوه الأدب، فلا أذكر لكم في هذا المساء إلا أنواعاً من النقد الأدبي في لغة العرب انتخبتها من أول عصر عرفناه من عصور لغتنا الكريمة إلى يومنا هذا، ومن هذه الأمثلة القليلة التي ألفتها مسامعكم تستخرجون كيف كان بعض النقدة ينقدون الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام وفي زمن بني أمية وبني العباس، وكيف خرج النقد من مرتبة إلى مرتبة، وتستنبطون الفرق بين النقد القديم والنقد الحديث.

لا بد لي في الكلام على أطوار النقد الأدبي من أن أنتقل بكم إلى الجاهلية، أي إلى تلك العصور التي جاءت قبل الإسلام وجاء معها هذا الشعر الذي نقلوه عن قدماء شعراء الجاهلية، أمثال أبي دؤاد الأيادي، ولقيط الأيادي، وعلس ذي جدن، وخزيمة بن نهد، وحزن بن لوذان، والربيع بن زياد، وعمرو بن قميئة، وامرىء القيس وغيرهم.

ولكن الكلام على أطوار النقد أو على أطوار الأدب أو على أطوار اللغة لا يكون وافياً إلا إذا عرفنا أول عصر من عصور نشأة لغتنا، كما يعرف الفرنسيون أول عصر من عصور نشأة لغتهم، وتحدرها من الأصل اللاتيني، ولا يتيسر لنا مثل هذه المعرفة إلا إذا درسنا اللغات السامية أو لغات الأمم التي خالطها العرب في القديم، ووقفنا على شيء من الكتابات المنقوشة على الحجارة،

كالكتابات التي دلت على أن لبلاد العرب الجنوبية حضارة يمتد تاريخها إلى القرن الثامن قبل السيد المسيح، أو إذا حفرنا حفراً في أرض جزيرة العرب، كالحفير الذي حفروه في زمن مروان في صنعاء فوقفوا على أزج له باب فإذا هم برجل على سرير كأعظم ما يكون من الرجال، عليه خاتم من ذهب وعصابة من ذهب، وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه:

«أنا علس ذوجدن القيل الخليلي مني النيل ولعدوِّي منّي الويل، طلبت فأدركت، وأنا ابن مئة سنة من عمري، وكانت الوحش تأذن لصوتي، وهذا سيفي ذو الكف عندي، ودروعي ذوات الفروج، ورمحي الهزبريّ وقوسي الفحواء، وقرني ذات الشر فيها ثلاث مئة حشر من صنعه ذي تمر، أعددت ذلك لدفع الموت عني فخانني». إن كتابات مثل هذه تدلنا على نشوء اللغة، وعلى أطوارها كيف كانت اللغة في القديم وإلى أين صارت في الجاهلية.

فالشعر الذي جاءنا على أقدم شعراء الجاهلية لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير أن يتقدمه شعر لم يصل إلينا شيء من آثاره، فإن كلاماً مثل كلام أبي دواد الأيادي وهو شاعر جاهلي قديم:

والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

قد تعاقبت عليه عصور طويلة حتى وصل إلى ما وصل إليه، فمثل الألفاظ كمثل المخلوقات الحية في عالمي النبات والحيوان، فإن لهذه الألفاظ عصوراً تولد فيها، وعصوراً تعيش فيها، وعصوراً

تموت فيها، أو تنقلب في أثنائها من حال إلى حال. والخلاصة إن لهذه الألفاظ حياة فلا يمكن أن تظهر بغتة على وجه كامل.

ولئن فاتنا العصر الأول الذي نشأت فيه لغتنا فلم يفتنا العصر الجاهلي الذي جاء قبل الإسلام، فإني سأشرع في الإشارة إلى أنواع من نقدنا الأدبي من هذا العصر. للعرب في الجاهلية مجالس أدب وأسواق، أشهر هذه الأسواق سوق عكاظ التي كانت تقام في أول ذي القعدة، فلا تزال يباع ويشترى فيها إلى حين الحج، وكان قيامها بين النخلة والطائف.

شيخ النقدة في الجاهلية النابغة الذبياني، وهو صاحب نعيم وترف، كان يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده لا يستعمل غير ذلك.

فالنابغة كان يضرب له قبة من أدمٍ بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. فيحكم، فلننظر في طراز هذا الحكم.

أول من أنشده الأعشى، ثم حسان بن ثابت، ثم أنشدته الشعراء ثم أنشدته الخنساء:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ولما سمع قول الخنساء قال: «والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً قلت إنك أشعر الجن والإنس» فقام حسان وقال: «والله لأنا أشعر منك ومن أبيك» فقال له النابغة: «يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول».

فخنس حسان لقوله:

هـذا نمـط مـن نقـد النابغـة وإليكـم نمطـاً آخـر مثلـه: قـدم النابغـة المدينة فدخـل السـوق فـنزل عـن راحلتـه، ثـم جثـا علـى ركبتيـه، ثـم اعتمـد على عصاه ثم قال: «ألا رجل ينشد؟ فتقدم قيـس بـن الحطيـم فجلس بين يديه وأنشـده:

أتعرف رسماً كـأطراف المذاهـب

فلـم يزده على نصف البيت حتى قال له النابغة:

«أنت أشـعر النـاس يـا ابـن أخـي»

مـن هـذه الأمثلة يتبين لكـم أن النقـد كـان في بعـض الأحـايين مجـرداً يحكـم النابغة لشاعر من الشعراء من دون أن يوضـح شـيئاً مـن أسـباب التفضيـل والتميـيز.

فلننتقـل إلى صـدر الإسـلام ولنذكـر في هـذه المـرة نوعـاً مـن نقـد النسـاء، فقـد كـان للنسـاء مجـالس حافلـة، مـن هـذه المجـالس مجلـس سكينة بنـت الحسين، ومجلس عائشة بنـت طلحـة. فكـانت عائشـة تفـد على هشام فيبعث إلى مشـايخ بـني أميـة فيحضـرون ويسـمرون عنـده، فـلا يتذاكـرون شـيئاً مـن أخبـار العـرب وأشـعارها وأيامهـا إلا أفـاضت معهـم فيـه، ولا يطلـع نجـم ولا يغـور إلا سَّـمته، فكـان مجلسـها منضَّـد فيه الريحان والفواكـه والطيـب المجمـر، فتخلـع على كـل امـرأة تحضـر المجلس من نسـوة قريـش خلعـة تامـة مـن الوشـي والخـز ونحوهمـا، ولم

يكن لعائشة شبه في زمانها حسناً ودماثة وجمالاً وهيئة ومتانة وعفة.

وكذلك سكينة بنت الحسين، فقد كانت عفيفة سلمة برزة من النساء، تجالس الأجلة من قريش، وتجتمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزَّاحة.

كانت أحسن الناس شَعْراً، وكانت تصفّف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه، حتى عُرِف ذلك وكانت تلك الجمة تسمى «السكينية»، كان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً يصفف جمته السكينية جلده وحلقه.

كان يجتمع في منزل سكينة أمراء الغناء وهم معبد وابن سريج والغريض وحنين، فتأذن للناس إذناً عاماً حتى تغص بهم دارها، فتأمر لهم بالأطعمة فيأكلون ويسمعون الغناء، وتجيز المغنين، وربما أعطت بكل بيت ألف درهم.

وقد كان لها ميل إلى الغناء فكانت تبعث إلى ابن سريج بشعر، وتأمر أن يصوغ فيه لحناً يُناحُ به فيصوغ اللحن ابن سريج، وإذا اجتمع نسوة وذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه ومجلسه وحديثه وتشوقن إليه بعثت إليه سكينة رسولاً فيوافي عمر مجلسهن فيحدثهن حتى مطلع الفجر.

كانت سكينة تنقد الغناء وتنقد الشعر، ولما غنى الغريض وابن سريج «عوجي علينا ربة الهودج» قالت: والله ما أفرق بينكما، وما

مثلكما عندي إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجوارى لا يدري أي ذلك أحسن.

فالذي يهمنا من شأن هذه المجالس صبغتها الأدبية، فكانت سكينة تحكم بين رواة الشعر، فقد اجتمع مرة راوية جرير وراوية جميل نصيب، وراوية الأحوص، فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال: صاحبي أشعر» فحكّموا سكينة لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر، فخرجوا يتهادون حتّى استأذنوا عليها فأذنت لهم، فذكروا لها الذي كان من أمرهم فقالت لراوية جرير:

أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الطروق؟ قبح الله صاحبك وقبح شعره

ثم قالت لراوية جميل:

أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى إنما يطلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره

ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهيمُ بدعدٍ ما حَييتُ فإن أمُتْ فوا حَزَنَاً من ذا يهيم بها بعدي

فما أرى له همة إلا فيمن يعشقها بعده، قبحه الله وقبح

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا

باتـــا بـــأنعم ليلـــة وألذّهـــا حتـــى إذا وضـــحَ الصبـــاحُ تفرّقـــا

قال «نعم» قالت: «قبحه الله وقبح شعره» ألا قال «تعانقا» فلم تُثْنِ على أحد منهم في ذلك اليوم، ولم تقدمه، وفي رواية أنها قالت لصاحب جميل أليس صاحبك الذي يقول:

فيا ليتني أعمى أصمُّ تقودُني بثينةُ لا يخفى عَليَّ كلامها

قال «نعم» قالت: «رحم الله صاحبك إنه كان صادقاً في شعره، وكان جميلاً كأسمه، فالحكم في هذه المرة لم يكن مجرداً، وإنما ذكرت فيه الأسباب التي من أجلها كان يُرَدُّ الشعر أو يقبل.

فكان نقد سكينة معنوياً يتعلق بالمعنى من حيث موافقته للذوق، أو إنحرافه عن الذوق، وعلى كل حال فإنه يختلف عن نقد النابغة الذي ذكرته، فإن فيه جولة للفكر. وعليه مسحة من الشعور.

هذا مجلس من مجالس نقد النساء للشعر في الصدر الأول من الإسلام، فلنشهد مجلساً من مجالس خلفاء بني أمية. كان الأخطل يجيء وعليه جبّة خز، وحرز خزّ، في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب، تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك، وربما دخل عليه وقد شرب، فيكلم الخليفة ويخلط في كلامه ويقول:

إذا شـرب الفتـى منـا ثلاثـاً بغـير المـاء حـاول أن يطـولا

مشـى قرشـيةٌ لا عيـب فيهـا وأرخـى مـن مـآزره الفضـولا

وبلغ من دالته على عبد الملك بن مروان أنه دخل عليه يوماً فاستنشده فقال الأخطل قد يبسى حلقي، فمن يسقيني؟ فقال عبد

الملك: «اسقوه ماء» فقال الأخطل: «شراب الحمار وهو عندنا كثير» فقال عبد الملك: «فاسقوه لبناً» فقال: «عن اللبن فُطمت». فقال: «فاسقوه عسلاً»، فقال الأخطل: «شراب المريض»، فقال عبد الملك: «فتريد ماذا» قال: «خمراً يا أمير المؤمنين». قال: «أوعهدتني أسقي الخمر لا أمّ لك؟ لولا حرمتك بنا لفعلت بك ما فعلت». فخرج الأخطل فلقي فرّاشاً لعبد الملك فقال ويلك إن أمير المؤمنين استنشدني وقد ضحل صوتي فاسقني شربة خمر فسقاه فقال اعدله بآخر فسقاه آخر فقال: تركتهما يعتركان في بطني اسقني ثالثاً فسقاه، فقال تركتني أمشي على واحد. اعدل ميلي برابع فسقاه رابعاً فدخل على عبد الملك فأنشده:

خف القطين فراحو منك وابتكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير

فقال عبد الملك:

خذ بيده يا غلام فأخرجه فألق عليه من الخلع ما يغمره، وأحسن جائزته وقال: إن لكل قوم شاعراً وإن شاعر بني أمية الأخطل.

إني أرى أن الحكم على الأخطل لا يخلو من صبغة سياسية، لأن الأخطل كان هواه في خلفاء بني أمية.

فلْننتخب طرازاً آخر من النقد في ذلك العصر. أنشد جرير قول عمر بن أبي ربيعة:

سائلا الربع بالبلى وقولا هجت شوقاً لي الغداة طويلا

أين حي حلوك إذ أنت محفو	*فّ بهم أهل أراك جميلا*
قال: ساروا فأمعنوا فاستقلوا	*وبرغمي لو استطعت رحيلا*
سئمونا وما سئمنا مقاما	*وأحبوا دماثة وسهولا*

فقال جرير:

إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي. إننا نستنبط من قول جرير أن النفوس تطلعت إلى أسلوب حديث في الشعر غير الأسلوب الذي كان الشعراء يتبعونه في الجاهلية، وهذا التطلع يدلنا على طور جديد. فجرير وأمثاله كانوا يريدون أن يسمعوا أشياء لم تألفها أسماعهم. والنفوس في كل عصر تميل إلى الشيء الطريف.

وقد كان في الإسلام مجالس أدب تشبه مجالس الأدب في الجاهلية، منها مربد البصرة، ومسجد الكوفة، فكان يتوافق جرير والفرزدق بالمرْبد للهجاء، وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها.

وكما كان لخلفاء بني أمية مجلس أدب، فكذلك كان لخلفاء بني العباس أشباه هذه المجالس، وربما كانت مجالس المنصور والمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء وأبناء الخلفاء والأمراء والوزراء أعمر وأحفل ولكنّي أتخطى الكلام على هذه المجالس فأذكر طرازاً من نقد الرواة في ذلك العصر، فقد ظهر أبو زيد الأنصاري وأبو عبيدة والأصمعي، وظهر حماد الراوية والمفضل الضبي وخلف الأحمر.

ولكن الجاحظ قد كفانا مؤونة الحكم على نقد هؤلاء الرواة. فأجمل الكلام على خصائص هذا النقد فقال:

طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه. فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينقد إلا فيما اتصل بالأخبار، وقال في موضع آخر:

ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل.

فالذي يستخلص من كلام الجاحظ أن الذوق الأدبي في النقد قد لوّن بألوان شتى، فمرة كان الذوق يصبغ بصباغ نحويّ، ومرة بصباغ لغويّ ومرة بصباغ إخباريّ. إن هذا الكلام، على صحته، في أكثر الأحيان، لا يخلو من مبالغة صاحبه فيه في بعض الأحيان، فالجاحظ قال طلبت الشعر عند الأصمعيّ فوجدته لا يعرف إلا غريبه، ولكن الذي وصل إلينا من أمر الأصمعي أن له آراء في الشعر والنقد لا تدل على أنه لا يعرف إلا غريب الشعر، حتى كان الرشيد يقول له: «يا أصمعي ما تطاق في الشعر» فللننظر في نوع من أنواع نقده.

محاضرة ألقيت في بهو الكلية العلمانية في بيروت

- ٢ -

سئل عن بشار ومروان بن أبي حفصة أيهما أشعر فقال: «بشار» فسئل عن السبب في ذلك فقال: لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه، وشاركه فيه من كان في عصره، وبشار سلك طريقاً لم يُسلك وأحسن فيه وتفرد به، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر، وأغزر وأوسع بديعاً، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل.

فإذا دققنا في هذا النقد وجدنا فيه ناحية جديدة فالنقد في هذه المرة مفصل معلل، فإذا حكم الناقد بيَّن أسباب التفضيل والتمييز، فبشار أشعر من مروان لأنه سلك طريقاً لم يسلكه غيره من الشعراء، وهنا تعترضنا مسألة القديم والحديث في الأدب، فالشاعر المبرز إنما هو الذي يذهب مذهباً يتفرد فيه لا يشبه غيره من المذاهب، فرأي الأصمعي في بشار يشبه رأي جرير في عمر بن أبي ربيعة فالنفوس قد ازداد تطلُّعُها إلى نواح جديدة في الشعر.

هكذا كان نقد بعض الرواة حتى جاء المؤلفون وشرعوا في

تأليف الكتب في النقد، فدخل النقد في طور جديد من حيث الترتيب والتأليف، من هؤلاء المؤلفين محمد بن سلاَّم صاحب طبقات الشعراء، فقد فصل الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، فنزلهم منازل واحتج لكل شاعر بما وجده له من حجة، وما قال فيه العلماء، ولكن جوهر النقد لم يختلف عما كان عليه في القديم، فكان الحكم لشاعر من الشعراء، لمتانة شعره أو لشرود قافيته أو لابتكار أسلوبه، وكل هذا كان منه شيء في القديم.

غير أن هؤلاء المؤلفين أخذوا يطعنون على ثقة بعض الرواة الذين أشرت إليهم، وهذا أفق جديد في التمحيص والتدقيق، فمن قول ابن سلام في الطعن على هؤلاء الرواة:

فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار، وليس يُشْكِل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون.

ولو نبه ابن سلام وغيره من الذين طعنوا على ثقة بعض الرواة على كل الزيادات التي زادها هؤلاء الرواة لنقي الشعر العربي فلم يبق مجال لارتياب المرتابين بصحة بعض هذا الشعر. وأفق آخر في

التمحيص أن القوم أخذوا يفرقون بين لسان حمير ولسان الحجاز. فقد أشار ابن سلام إلى قول أبي عمرو بن العلاء في هذا الأمر:

«ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا».

وهذان الأمران، زيادة الرواة واختلاف لسان حمير والحجاز، هما المحوران اللذان يدور عليهما شك بعض أدباء هذا العصر في الأدب الجاهلي.

نعم جاء المؤلفون في النقد كالجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن عبد ربه والآمدي، والجرجاني وابن رشيق وغيرهم، ولكن المجال لا يتسع للكلام على مذاهبهم كلها فأكتفي بالإشارة إلى ابن قتيبة صاحب كتاب الشعر والشعراء.

فمن قوله في بعض نقده:

ولا نظرت إلى المتقدم منهم ــ أي من الشعراء ــ بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حقه، ووفرت عليه حظه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع مُتَخَيَّرِه، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله. انظروا إلى هذا التطور، فإن الفكر أخذ يتحرر، فما كل قديم من الشعر متسحسن ولا كل حديث مستقبح، والقديم كان قديماً بالقياس إلى عصره، وهو حديث بالقياس إلى العصر الذي ظهر فيه، فامرؤ القيس قديم في عصرنا

هذا، ولكنه حديث في عصره لأنه ابتدع أشياء لم تعرفها العرب.

جاء هؤلاء المؤلفون وفي جملتهم قدامة بن جعفر فوضع كتابه «نقد الشعر» فذكر فيه حد الشعر فقال في حده:

قولٌ موزون مقفى يدلّ على معنى؛ وذكر نعت اللفظ ونعت الوزن ونعت القوافي، وذكر معاني الشعر كالمديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه وأشار إلى عيوب الوزن وعيوب القوامي وعيوب المعاني، والخلاصة أن النقد في هذه المرة تقيد وأصبح تابعاً لقواعد، فمن شروط اللفظ مثلاً أن يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها، رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة، فهذه الكتب وأمثالها تشبه كتب الفن الشعري في لغات الإفرنجة، فإن أصحابها لا ينظرون إلى آثار العقل والعاطفة إلا من حيث الصور الفنية. فمن نقد قدامة أن النابغة طعن على حسان بن ثابت بقوله:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقال: لو قال حسان بالدجى لكان أحسن من قوله بالضحى إذ كل شيء يلمع بالضحى.

فقال قدامة: وهذا – أي نقد النابغة – خلاف الحق وعكس الواجب، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور، الشديد الضياء فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه، فمن ذلك الكواكب وهي بارزة لنا مقابلة

لأبصارنا دائماً تلمع بالليل ويقلُّ لمعانها بالنهار.

فمن هذا يتبين لنا أن النقاد أخذوا يتوسعون في نقدهم فإذا فضلوا لفظاً على لفظ لمّحوا إلى أسباب التفضيل، وأعملوا فكرهم في التمييز.

ولكن الذي توسع في قواعد الفن الشعري إنما هو ابن رشيق في كتاب العمدة على أنه مع توسعه لم يجاوز نقده الاقتصار على الصور الفنية، فمن قوله في فضل الشعر:

كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه وإليه يقاس وبه يشبه، إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً.

فالشعر عبارة عن ألفاظ تشبه الدر، على أن قتيبة كان يعرف أن العرب احتاجت إلى الشعر لتغني بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة، ولكنه نظر إلى ظواهر الأكسية التي كانت تصون كرم هذه الأخلاق وطيب هذه الأعراق، وصلاح تلك الأيام، ونزوح تلك الأوطان، ولم يتغلغل في بواطن هذا الكرم وهذا الطيب.

على أن المؤلفين لم يقتصروا على وضع قواعد الشعر وفنه، فإنهم حلقوا في سماء أعلى فعدلوا عن النظر إلى العمل، فأفردوا لنقد شاعر من الشعراء باباً خاصاً، وعملوا فيه كتاباً على حده، منهم

القاضي الجرجاني صاحب كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» فالنقد في هذه المرة قد لبس بُرداً قشيباً وظهرت فيه آفاق جديدة، من هذه الآفاق الكلام على عوامل البيئة والمزاج، فطفق النقاد يعترفون بآثار البيئة والمزاج في نتائج الخواطر وثمرات القرائح، فمن كلام القاضي الجرجاني:

«وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك.

إلا أن القاضي الجرجاني مع تنبهه على تأثير البيئة في العبقرية لم يطبق هذا المذهب في نقده فلم يبين تأثير البيئة في شعر المتنبي، وأنتم تعلمون أن أبا الطيب المتنبي طلب اللغة والأدب في البادية، وصحب الأعراب فغدت البادية في ذهنه صوراً ظهرت آثارها على شعره في جميع أطواره، فالجرجاني أكتفى بالإشارة إلى عمل البيئة في القرائح والخواطر ولم يذكر شيئاً من هذا العمل في شعر المتنبي.

وإلى جانب هذا كله نوع آخر من النقد لا بأس بالإشارة إليه

وهو أسلوب الذين كتبوا في تراجم الشعراء والكتاب، إننا نجد في معظم كتاباتهم أساليباً متشابهة وألفاظاً متقاربة بحيث يخيل إلينا أن الشعراء أو الكتَّاب الذين يتكلم عليهم أصحاب هذه التراجم متماثلون في كمال أدبهم وتمام عبقريتهم، فمن قول الذين كتبوا في التراجم «فلان أحد أفراد الدهر في النظم والنثر، فلان فرد دهره وشمس عصره، فلان أعجوبة الزمان ونادرته وفريد عصره وباقعته» فكان الكتَّاب والشعراء كلهم أعاجيب الزمان ونوادره وآحاد الدهر وشموسه، وكم اشتهيت أرى ليلاً مظلماً إلى جنب شمس من تلك الشموس.

من هذه الأمثلة القليلة يتبين لكم كيف كان بعض النقد في الجاهلية وصدر الإسلام وفي زمن بني أمية وبني العباس، فتارة كان هذا النقد مجرداً ليس فيه شيء من التعليل، وتارة كان معنوياً فيه القليل من الفكر والشعور، وحيناً كان سياسياً وحيناً كان فيه نزعة إلى تجديد الأدب، ثم صبغ النقد بصباغ لغويّ أو نحويّ أو إخباريّ، ثم اشتدت النزعة إلى التجديد، ثم ألف النقدة كتبهم ومالوا إلى القليل من التمحيص ثم تحرر النقد فما كل قديم حسن ولا كل حديث قبيح، ثم وضعوا له قواعد أشبه شيء بقواعد الفنّ الشعريّ، ثم توسعوا فيه فظهرت عوامل حديثه في النقد، عامل البيئة وعامل المزاج، ثم وقف النقد الأدبيّ وقفته حتى مطلع العصر الحديث.

إن الكلام على النقد في هذا العصر وفي الذي سبقه يطول مداه وأكتفي بالإشارة إلى طائفة من الأساتذة الذين زاولوا النقد في أول نهضتنا وفي مقدمتهم شيخنا اليازجي ناقد شعر أبي الطيب، ولكن هذا النقد، على بلاغة أسلوبه، لم يتعد الصور الفنيّة، فهو لا يختلف عن نقد المتقدمين من الأساتذة أمثال الثعالبي والجرجاني فليس عليه طابع النقد الحديث.

ولست أعني بالنقد الحديث هذا المذهب الذي ذهبه بعضهم مستندين إلى زيادة الرواة وإلى الاختلاف بين لسان حمير ولسان قريش حتى أدى استنادهم إلى الشك في كثير من شعرنا كما شك بعضهم في هوميروس مثلاً. إن مثل هذا المذهب قد بالغوا فيه فضلاً عن أنه يخلو من كثير من التمحيص والتحقيق، فما يقوله أصحابه قاله غيرهم من أحد عشر قرناً، ولكني أعني بالنقد الحديث هذا الأسلوب الذي لجأ إليه بعض الأساتذة في الكلام على شاعر من الشعراء، وما يمتد إليه هذا الكلام من البحث عن روح الشاعر وعن عاطفته وعن فكره وعن لغته وعن فنه، وعن العوامل في عبقريته وفي أخلاقه بحيث يتمثل لنا هذا الشاعر تمثُّلاً، فكأنه قد بُعث من مدفنه، نشهد كل حركة من حركاته وكل سكنة من سكناته، فإذا نقدنا شاعراً من الشعراء وجب علينا، كما قلت في محاضرة في كلية الآداب في دمشق، أن نحيط بروح المؤلف وبأفكاره وبعواطفه، وأن ننظر في اتصال هذه الأمور النفسية بعضها ببعض، وفي تفاصيلها ومظاهرها، وأن نبحث عن بيان المؤلف وعن فنون إفصاحه، وعن خصائص لغته وأسلوبه، وأن نتعمق في التنقيب عن

مراميه والوصول إلى تلك الذكريات التي كانت تخطر بباله في ساعات وحيه، وأن نبعث قبالة أعيننا حالة عقله من مرقدها وننعش فكره وهوائجه بعد أن ذهب أثره وانطوى ظله، ولم تبق منه إلا صفحات لا نرى فيها في فاتحة الأمر غير صورة بعيدة عنا وتعابير هامدة لا روح فيها، فإذا عالجناها انتفضت من مدافنها فأصبحت صوراً ناطقة تفكر وتشعر.

هذا المذهب الذي نذهبه في نقدنا الحديث، فإذا نقدنا شعر أبي الطيب المتنبي مثلاً، وجب علينا أن نعرف تاثير البيئة في شعره وعبقريته، وتأثير هذا الدم اليماني في عروقه دون أن نبالغ في هذه العوامل، فالمتنبي أقام بالبادية وطلب فيها الأدب، وعلم العربية فظهرت على شعره آثار هذه البادية، فهو ابن البيد والفيافي، من أفق البادية درج خياله وفي جوّ البادية نما هذا الخيال، فإذا نقدنا شعره وجب علينا أن نلُمّح إلى هذه الآثار في شعره، والمتنبي يماني الأصل من الناحيتين، من ناحية أبيه ومن ناحية جدته فهو عريق في يمانيته وفي عروبيته، فإذا نظرنا في شعره وجب علينا أن ننبه على آثار هذه العروبية وما أظهرها وإذا سمحتم لي ضربت مثلاً لهذه العروبية.

إنكم تعلمون أن أبا الطيب مرّ بشعب بوّان بأرض فارس وهو أحد متنزهات الدنيا، تغنى به الكتّاب والشعراء ووصفه المتنبي نفسه فقال:

ملاعب جنّةٍ لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

طبت فرساتنا والخيل حتى ... خشيت وإن كَرُمْنَ مِن الحران

غدونا ننفض الأغصان فيها ... على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عني ... وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي ... دنانيراً تفِرّ من البَنان
لها ثَمَرٌ تشير إليه منه ... بأشربة وقفن بلا أوان
وأمواهٌ تصلّ بها حصاها ... صليل الحلي في أيدي الغواني

ما قولكم في شاعر يرى هذه العجائب والغرائب فلم تستول على قلبه ولم تأخذ من نفسه، لأنه تذكر وهو في شعب بوّان أنه عربي في بلاد العجم فتأوه وقال:

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

وما هذا الفتى إلا المتنبي نفسه، وحنَّ إلى منازل دمشق العربية وقال:

منازل لم يزل منها خيال ... يشيعني إلى النوبذ جان
إذا غنّى الحمام الورق فيها ... أجابته أغانيّ القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام ... إذا غنى وناح إلى البيان

نعم إذا نقدنا أبا الطيب المتنبي وجب علينا أن نشير إلى هذه الآثار كلها، فما يكفينا اليوم في النقد أن نتوخى تفسير الغريب من الشعر، وإعراب المشكل من التراكيب، والتنبيه على مذاهب الاستعارات والكنايات، وعلى مواطن السرقة وعلى محاسن المطالع ومقابحها، إن الشعر يشتمل على أمور غير أمور اللغة وآلاتها.

إن الشعر إنما هو أثر ناطق يظهر عليه روح صاحبه وفكره وعاطفته، فالنقد الحديث هو الذي يتولى كشف الغطاء عن هذه

الروح وعن هذا الفكر وعن هذه العاطفة.

هذا آخر ما أحببت أن أحاضركم به من الكلام على شيء من نقد الأدب في لغتنا. وما أظن أن أدباً من الآداب قد نمت مذاهبه وامتدت ظلاله في العصور الأخيرة دون أن يكون للنقد الأثر الأبلغ في نمو هذه المذاهب وامتداد هذه الظلال، فالأدب الألماني في القرن التاسع عشر قد انبلج نوره من آفاق الناقد (لسينغ)، وقد كان النقد روح الأدب الفرنسي من ثلاثة قرون، ولم يحدث حادث في هذا الأدب وفي أذواق أهله من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا، إلا كان النقد مصدر هذا الحادث أو أصله، فإذا عرفنا كيف ننقد وضح ما خفي من جمال أدبنا وازداد رونق هذا الأدب.

بيروت

في ٣ نيسان سنة ١٩٣٠

دمشق في أميركة

لا أريد أن أخادع القارئ الكريم بهذا العنوان، ولكني عشت في مدينة من مدن أميركة يوماً عيشة دمشق نفسها، فقد كنت من يومين في «دلفن» وهي من ولاية الكولورادو فعلم بقدومي جماعة من أهل فلسطين ولبنان والشام ورجل من الأميركان آدمي أسلم من سنين سمى نفسه عبد الله فزدت على هذا الاسم لقب الشيخ، وسميته الشيخ عبد الله، ودرج الأسم بين إخوانه المسلمين، علم بقدومي هؤلاء الطيبون فزاروني ودعاني أحدهم إلى سهرة في داره وإلى غداء وهو من قرية على مقربة من أريحا اسمها: دير دبوان.

ذهبت إلى الدار في الليل وإذا السجاد العجمي ممدود على الأرض، وإذا أصوات محمد عبد الوهاب وأغاني لبنان جاهزة لتدوي في البهو، وإذا «الأركيلة» والتنباك العجمي، وأبو داود صاحب الدار يسألني: هل تدخن؟ وقد كنت استرحت من الأركيلة ثلاثة شهور، ولكن النفس أمارة بالسوء، ففطن أبو داود إلى أني من جماعة «الأركيلة» فهيأها بيده وأوقد الفحم وجاءني بها.

في دقيقتين شعرت بأني في دمشق، فقد دار الكلام وتساقطنا

الأحاديث وموضوعها قضية فلسطين مرة، وتناحر العرب مرة، وتخاذلهم حيناً، وفلان طيب وفلان غير طيب، وما شابه ذلك، في دقيقتين شعرت بأني في مقهى من مقاهي دمشق التي ألفتها أضيع فيه الوقت، لا بل أقتله قتلاً لأن الوقت لا قيمة له في نظرنا.

خرجت من دار صاحبنا أبي داود وهو رجل كريم النفس لا يزال يتكلم بالعربية، ولكن زوجته عجمية الأصل لا تعرف غير الإنكليزية، وابنها داود لا يعرف العربية، خرجت من عند أبي داود فازدحمت الخواطر على ذهني في آخر مدينة من المدن التي زرتها في أميركة وهي «سان لويس» وأخذت أقابل بين طرز حياتنا وبين طرز حياتهم في أميركة وأنا لا أحب المقابلات، ولا المقايسات ولا الاستنتاجات، فإني لست من علماء الاجتماع ولكني هذه المرة أحببت المقابلة وقلت في نفسي: ما أعظم الفرق بين ميلنا وبين ميلهم إلى العمل، إني لا أريد أن أظلم أحداً فأنا أتكلم على نفسي، فقد قضيت أربعين سنة في الذهاب إلى المقاهي، كل مرة أصرف في المقهى أربع أو خمس ساعات بين «أركيلة» أجدد نارها وماء أطلب زيادة ثلجه وقهوة أوعز بإكثار «الهيل» فيها، ونرد يساعدني الزهر فيه حيناً ويعاكسني حيناً، لقد قضيت أربعين سنة على هذا الشكل.

أما الأميركاني فالوقت في نظره مقدس، والعمل يكاد يكون إلهه، لقد أنشأ أميركة بفضل هذا العمل، فحول قسماً كبيراً من

صحراواتها إلى مدن عظيمة، وهو يفخر بذلك، فلا مقهى في مدنه على شارع من الشوارع، ولا مقصف على بحيرة من البحيرات أو على شاطئ من شواطئ البحر، أو على جبل من الجبال الشجيرة، فقد يجوز أن تحمله المقاهي والمقاصف التي هي من هذا النوع على الكسل فيضيع فيها ربيع عمره كما أضعته أنا.

لكني لا أميل إلى هذا الطراز من العمل، فقد قالت لي سيدة فرنسية: إن الأميركان لا يعرفون أن يعيشون، وأنا لا أقول هذا القول، ولكني أقول إن الأميركان بالغوا في ولعهم بالعمل حتى أضاعت هذه المبالغة عليهم شيئاً من لذة الحياة، كما أننا بالغنا في ولعنا بالكسل حتى صرفتنا هذه المبالغة عن قليل من الاستعداد للحياة.

الحياة تتطلب شيئاً من العمل وشيئاً من التمتع بالطبيعة والخلو إلى النفس، والعقل كل العقل في الجمع بين هذين الأمرين!

سان لويس

٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٣

في الثكنة والملعب

«إني أظن أن أكثر الشعوب التي استفاض فيها التميع تحتاج إلى شيء من الصفات الخلقية. لقد كثرت شهاداتنا مما دل على تفوق عقولنا، ولكننا نريد أخلاقاً على قدر شهاداتنا».

أعرف أخوين من قرية من قرى الزبداني، الأول كأنه على تشبيه الجاحظ صخرة منصوبة أو رمح مركوز، لا بأس بخلُقه ولكن البأس كل البأس بفهمه، والثاني مصقول الحواشي يفهم بعض الفهم ويدرك بعض الإدراك، قلت له مرة؛ إني أرى فرقاً كبيراً بينك وبين أخيك، ففطن إلى ما أريد فقال من فوره: إني كنت جندياً وأخي جاوز سن الجندية.

في رأي الفلاح على ما يظهر أن الجندية تصقل من فهم الإنسان لأنه يخالط طبقات شتى من الناس جاؤوا من قرى أو مدن مختلفة، لكل واحد منهم عقلية خاصة وفهم خاص، فيكشف من طبائعهم وأخلاقهم وعقولهم فيهتدي إلى خصائصها، فيعرف ما يرضي وما يغضب، والخلاصة يعرف شيئاً من أدب الحياة أو مما نسميه في لغتنا العامة من أدب السلوك.

لم يهتد عقل هذا الفلاح في أسرار الجندية إلى أبعد من هذا

السر، ومع ذلك فإني أعتقد أنه فهم منها شيئاً غير قليل، لا ريب في أن للجندية آفاقاً أبعد من هذا الأفق، فقد وجد فيها بعض علماء الاجتماع الذين تكلموا عليها نظاماً من أنظمة الحياة، فهم يرون أن التربية العسكرية قد تجر إلى منافع غير قليلة، وقد نسب مرة عالم من علماء الكيمياء وهو «أوستوالد» تفوق صناعة الألمان إلى أمر واحد وهو أنهم دون الشعوب كلها يملكون روح التنظيم بفضل تربيتهم العسكرية.

ولكن عن أي شيء نشأ هذا التفوق، هل نشأ عن الصفات العقلية وحدها التي يكتسبها الألمان في الجامعة، أم نشأ عن الصفات الخلقية كالحرص على النظام والترتيب والتضامن والشعور بالواجب ودقة هذا الشعور وغير ذلك من الأمور التي لا تدخل في مناهج الجامعة، ذهب بعضهم إلى أن مصدر هذا التفوق إنما هي الصفات الخلقية.

وذهب بعض وزراء الألمان وهو الوزير «هلفرينش» إلى أن هذا التفوق إنما مصدره مرور الألمان كلهم بالثكنة حيث يكتسبون الصفات الخلقية التي لا غنى لهم عنها في تطور صناعة العالم.

وقريب من الألمان في هذا المعنى اليابانيون، فقد كانوا في القديم أهل مملكة صغيرة لا شأن لها، كانت أوروبة تستخف بها من ثمانين سنة، ثم صارت هذه المملكة دولة من الطراز الأول، خشيت جانبها أميركة ورغبت الدولة الكبيرة في محالفتها إلى أن نكبت الأخيرة ولم تصل إلى المنزلة التي وصلت إليها قبل النكبة إلا

بفضل صفات خلقية تشبه صفات الألمان.

وكما تكتسب الأمم صفات خلقية في الثكنة فكذلك تكتسب هذه الصفات في الملعب، فإن الأميركان أنفسهم لم يكن لهم في الماضي جيش، ومع هذا فقد نجحت صناعاتهم نجاحاً عظيماً، والسبب في هذا النجاح أن الأميركان إذا لم يكن لهم ثكنة يكتسبون فيها الصفات الخلقية، فقد كانت لهم ملاعب يروضون فيها أبدانهم فيكتسبون بالرياضة صفات الترتيب والنظام والتضامن والشعور بالواجب، لأن منهاج الرياضة يشبه من بعض الوجوه منهاج الثكنة، والإنكليز أنفسهم لم يتفوقوا في الماضي إلا بسبب الرياضة.

ولكن كيف يستطيع نظام الجندية أن يؤثر في إنشاء الصفات الخلقية. هذا سؤال خاض فيه بعض الفلاسفة من جملتهم «كانت» و«برغسون» إنهم لم يخوضوا في نظام الجندية نفسه وإنما خاضوا في الكلام على إنشاء الأخلاق، وجرت نقائض بين الفيلسوفين العظيمين، وأظن أن التعرض لها في موضوع مثل هذا الموضوع قد يكون خروجاً عن مقتضى الحال، ولكن المهم في هذا كله أن نعرف أن حرمة الواجب الخلقي تصبح بالتربية عادة من العادات، فيخضع الرجل لطائفة من قواعد السلوك دون مناقشة، فكيف نستطيع أن نحول إلى عادات راسخة المحافظة على قوانين في الأخلاق إذا لم تعمل بها الجماعات اختلت أمورها؟

سأل فريق من العلماء هذا السؤال وكان جوابهم أن السبيل

الأوحد إلى ذلك إنما هو الأمر الآتي: تكرير العمل الذي نريد تحويله إلى عادة حيناً من الدهر طويلاً.

ولكن هذا العمل الذي نسعى في تكريره قد يزعج الطالب في أغلب الأوقات، وهذا لا يمكن تكريره إلا بشيء من الإكراه، أي باتباع نظام شديد قاس، إلا أن النظام الشديد قد يكون ممتنعاً في الأسرة أو في المدرسة، ولا يمكن خلقه إلا في الثكنة، ويرون أن النظام في الثكنة قد يكون متعباً في بدء الأمر ولكنه لا يلبث أن يصير إلى عادة من العادات. فالشعوب التي تحصل على نظام من هذا القبيل أي على نظام ثابت في الأخلاق، تفوق بهذا الحصول الشعوب التي ليس لها شيء من النظام المذكور.

الوصول إلى خلق هذه العادات يجري في عرف الفلاسفة على طريقة تداعي الأفكار.

يذكرون في هذا المعنى قصة لا بأس بالإشارة إليها، فإن أحد قواد الجيش الفرنسي اتصل به بعض النقباء أن أحد الجنود سكر فكسر زجاج الثكنة وهدد بسلاحه كل من كان يقرب منه، حتى حار النقيب في أمره، فقد كان في الإمكان أن يحيط بالجندي طائفة من الجند للقبض عليه، ولكن هذا العمل قد يعرضهم للقتل أو للجرح، أفلا يجدون وسيلة نفسية غير هذه الوسيلة؟ دنا القائد من الغرفة التي يعربد فيها الجندي ففتح بابها وصاح بصوت عال: سلاحك تهيأ. سلاحك ألق! إلى غير ذلك من الأوامر فحينئذ رجع

الجندي بطريقة لا شعورية إلى عقله، فقد كان عقله تعمل فيه الخمر عملها، ولكن العادة اللاشعورية التي اكتسبها في الثكنة كانت سليمة من السكر فهي التي أجبرته على الصحو وإطاعة أوامر القائد.

وما ترويض السباح إلا من هذا القبيل، وفي مدرسة من المدارس الإنكليزية يتردد إليها أرفع الطبقات، يضرب مدير المدرسة بسوط كل طالب يكذب، ماذا كانت نتيجة هذه العقوبة؟ إنها لم تطبق إلا في القليل، ولكن نتيجتها كانت تبغيض الكذب إلى هؤلاء الأولاد.

في الحقيقة إن القواد هم علماء التربية وعلماء النفس بالوقت نفسه، وإني أظن أن أكثر الشعوب التي استفاض فيها التميع تحتاج إلى شيء من الصفات الخلقية، وإذا كانت الرياضة تنشئ مثل هذه الأخلاق فإن تربية الثكنة أيضاً تنشئ هذه الصفات الخلقية، وما أعتقد أنَّا في غنى عن هذين الأمرين: الملعب والثكنة، لقد كثرت شهاداتنا مما دل على تفوق عقولنا، ولكنا نريد أخلاقاً على قدر شهاداتنا، وفي أحوال مثل أحوالنا يستعد فيها العالم بأسره لأشد تنازع عرفه التاريخ يتوقف عظمة الشعوب أو ضعفها على الصفات الخلقية التي نكتسبها في الثكنة والملعب.

تفكير فوضى

إذا كان الأدب صورة الحياة فإني أريد أن أتصدى في هذا المقال الوجيز لمشهد من مشاهد الحياة، فقد أحضر مجلساً من مجالسنا الخاصة فأسمع أحاديث المجلس وأخوض في هذه الأحاديث، والذي شهدته، أن أهل المجلس في أكثر الأحيان يتكلم منهم ثلاثة أو أربعة في وقت واحد، فلا يستطيع المستمع أن يعي ما يقولون، لأن كل واحد منهم في واد، ومن العسير أن يدرك الذهن في وقت واحد مرامي ثلاثة أحاديث أو أربعة أحاديث، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن أهل المجلس ينتقلون من حديث إلى حديث دون أن يكون للواحد صلة بالآخر.

ولا يشهد الإنسان هذا النوع من التفكير في المجالس الخاصة وحدها التي قد تخلو من الكلفة وتقرب من الطبع، وإنما يشهده في مجالس عامة قد تجمع طائفة من أهل العلم والتفكير، فكثيراً ما تعني هذه المجالس ما نسميه جدول الأعمال، فإذا شرع رئيس المجلس في عرض هذه الأعمال وامتد العرض نصف ساعة أو أكثر رأينا بعض أهل المجلس ينتقلون من حديث إلى حديث دون تأليف بينهما.

وما يقال في هذه المجالس العلمية قد يقال في مجالس النواب،

فكثيراً ما نشهد نوابنا يقفزون في خطبهم أو بياناتهم من الشرق إلى الغرب دون أن يتنفسوا في مثل هذه الاستطرادات طرفة عين، فلا يكاد الإنسان يلمس أكثر تنسيق في المذاكرات.

ولا غرابة بعد ذلك أن يمر أحدنا بتفكير فوضى في مجالس السيدات فأكثر هذه الاستقبالات التي درجت عليها سيدات دمشق إنما مثلها كما يقولون كمثل الحمام المقطوع ماؤه، كلمة من الشرق وكلمة من الغرب وقد تتكلم السيدات كلمة في وقت واحد.

وأغرب من هذا كله أن أحدنا يدخل مكتب محام من المحامين أمّا لصداقة بينه وبين المحامي وإمّا لزيارة خاصة، فيشهد المحامي يستقبل في وقت واحد ثلاثة أو أربعة زبائن، وكل واحد منهم يعرض قضيته أمام الآخر، وقد يسمع المحامي كلام زبون ينتقل إلى الزبون الثالث، وهو مضطر إلى مثل هذا العمل، لأن الناس لم يتعودوا الانتظار في غرفة الانتظار حتى تبلغ النوبة إليهم.

لا شك في أن الأحاديث أو الخطب أو البيانات أو الإفتاءات التي قد تدور على هذا الشكل قد تخلو من كثير من التنسيق فهي فوضى في أغلبها.

وإذا انتقلنا من هذه المشاهد الخاصة في عصرنا إلى أفق أوسع منها وأبعد عنها رأينا مثل هذه الآثار في أدبنا نفسه في بعض الأحيان، فإن تآليفنا القديمة قد تظهر عليها روح فوضى، هذا

كتاب الأغاني نفسه مع جلالة قدره فإنا لا نجد فيه ترتيباً حتى فطن صاحبه إلى ذلك فأشار إلى من يتصفحه وينكر ترك صاحبه تصنيفه أبواباً على طرائق الغناء، أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم، أو على ما غني به من شعر شاعر، وقد بين صاحب الكتاب في مقدمته المانع من تصنيف كتابه والباعث على منحاه الذي نحاه، ومن جملة العلل التي ذكرها، أن أخبار الغناء أو الشعراء إذا كانت منسقة كانت للنفس عنها نبوة وللقلب منها ملة، وفي طباع البشر محبة الإنتقال من شيء إلى شيء.

ولم يكن هذا المنطق منطق الأصفهاني وحده وإنما لجأ إليه إمام البلغاء في المتقدمين، وأعني به الجاحظ، فإن استطراداته مشهورة، وانتقاله من هزل إلى جد معروف.

إن هذا المنطق الذي استفاض في أدبنا في قديم العصور قد نشهد آثاره في عصرنا هذا، عصر العلم، وإذا قلت العلم عنيت بذلك التنسيق والترتيب والتدقيق والتركيز وأمثال هذه الخصائص، فإن الوقت أصبح له قيمة في هذه الأيام، ولا يتسع الزمن لتضيع المجالس في مذاكرات أو مطارحات فوضى، لا يؤلف بينها صلة من الصلات، فالزمن يستوجب عرض الفكر في أدق قالب وفي أقصر مدة، أما الأمم التي لا تعنى بالتفكير الدقيق أو بالاقتصاد في الوقت فهي ليست من أمم هذا العصر، فلا تصلح لروحه وإنما هي من روح العصور القديمة التي لم يكن فيها قيمة للوقت أو المنطق أو

التفكير.

وقد يلزمنا في مثل هذه المشاهدات الآلة أن نبحث عن معالجة لهذا الداء الشائع فينا، قد يجد أهل الفلسفة في فلسفتهم دواء لتفكير فوضى، وقد يجد أهل الرياضيات في رياضياتهم مثل هذا الدواء، أما نحن معاشر الأدباء فإن صناعتنا أجمح، فكل واحد منا يتناول القلم ويطرح أفكاره على الورقة دون أن يكون لعنان خياله أو تفكيره مدى يقف عنده، على أنا نستطيع أن نروض الأذهان على التنسيق، وأن نكبح من جماح التفكير، وقد تكون أساليبنا في هذه المعالجة لا تقال عن أساليب الفلسفة والرياضيات. إن أساتذة الأدب يدرسون أموراً كثيرة، إنهم يدرسون الصرف والنحو والبلاغة وعلوم اللغة وفقهها وتاريخ الأدب، ونحو ذلك، ولكنهم يدرّسون في الوقت نفسه تفسير النص.

هذا النوع من التدريس قد يروض الأذهان على نوع من التنسيق غريب، حتى يصبح التنسيق عادة، فلا يند صاحبه في مجلس خاص أو علم من شرق إلى غرب أو من شمال إلى جنوب، وإنما يركز تفكيره تركيزاً قوياً ويسلسله بحسب المنطق، صاحب التفسير يعنى قبل كل شيء في تفسيره الأدبي بالفكرة العامة في النص، ثم بأجزاء هذه الفكرة، ثم بارتباط كل جزء بجزء، بحيث يكون النص وحدة تامة يشهد الذهن تلاحمها أو انفكاكها، تنسيقها أو اختلالها، تمانعها أو تضعضعها، وإذا تعود الذهن مثل

هـذا الشـهود وتـروض عليـه اسـتطاع صاحبـه أن يكبـح مـن جمـاح تفكيره علـى الزمـن، وأن يربـط الفكـر بـالفكر ربطـاً قويـاً، ولا ريـب في أن مثـل هـذه الرياضـة مـن شـأنها أن تؤثـر في أحـاديث صاحبهـا الخاصة تأثيرها في كتاباته العامة، حتى يخـرج علـى الزمـن عـن تفكـير فوضى لا نـزال نـذوق مرارة عواقبـه.

مجلة الصحة والتربية

١٩٥٤/٦/١

obeikandl.com

من زاويتين!

كثيراً ما يقول لي جليس من جلسائي: لماذا تعمل كذا.. أو لماذا لا تعمل كذا.. قال لي واحد منهم: لماذا لا تذهب إلى (استوكهولم) فإنك إذا ذهبت إليها جددت شبابك، وظفرت بنعيم الدنيا فيها، وعبثاً أقول له إن مزاجي لا يحتمل رطوبة الهواء أو شدة البرد، فهو لا يهتم بما أقول ولا يعي ما أقول، لأن ذهنه مشغول بهذا السرور الذي أدخلته على قلبه (استوكهولم) فهو لا ينظر إليها إلا من ناحية هذا السرور، أما الوجه الذي يحصل لغيره من رطوبة الهواء وشدة البرد فلا شأن له به.

وقال لي واحد آخر: لماذا لم تنشئ جريدة فإنك لو أنشأت جريدة لاستطعت أن تصل إلى النيابة ثم إلى الوزارة، وعبثاً أقول له: إني لا أنظر إلى الحياة نظرة الناس إليها، فحسبي من هذه الحياة ما أدفع به الحاجة عني، أما النيابات وأما الوزارات فلست أرى فيها شيئاً من العظمة، لأن قيمة المرء في عظمة نفسه. وإذا قلت له هذا القول شعرت بأني أُكلِّمه بالصينية، فهو لا يريد أن يفهم ما أقول، لأن قلبه مشغول بنيابة أو وزارة أو بشيء آخر من هذا القبيل، والغريب أني أقرأ على وجهه استنكار كلامي، وأغرب من

هذا أنه لا يريد أن يصدقني في قولي، فكأنه يرى أني أظهر غير ما أضمر، وإذا سكت عن مجادلتي فهو لا يسكت عن إيمان بقولي، وإنما يسكت من أجل السكوت لا غير.

ومن هذا النحو من اختلاف النظر إلى الأمور أنماط كثيرة في الحياة تقع عليها العين كل يوم، فإن كل واحد من الناس ينظر إلى الأمر الواحد من زاوية، هذا ينظر إليه من ناحية اللذة وهذا ينظر إليه من ناحية الألم، فكيف تتفق النظرتان، وأظن أن من جملة أسباب سوء التفاهم الذي نشهد آثاره كل دقيقة بين الناس اختلاف النظرات التي ينظرونها إلى الأمر الواحد.

وإذا خرجنا في هذه القضية من أفقها الضيق إلى أفقها الواسع استطعنا أن نقول إن اختلاف البشرية في عصرنا هذا إنما مرجعه إلى الزاويتين المختلفتين اللتين تنظر البشرية من خلالهما إلى مجامع مسائلها، ففي اليوم الذي تكون فيه نظرة البشرية إلى أمورها واحدة، نستطيع أن نقول إن حسن تفاهم الناس مأمون.

في هذا المقام ندرك عظمة الشعراء أنصاف الآلهة، فقد ينزل عليهم من الحكمة مالا ينزل على غيرهم من الخلق، فيقذفون بهذه الحكمة في بيت واحد من الشعر، بديهة وارتجالاً، وربما لا يصل غيرهم إليها أو إلى ما يقرب منها بعد كثير من الروية والتفكير.

فهذا المتنبي، على تراخي الأيام بيننا وبينه، ينتفض من قبره فيزول القطن والكفن فيعيش بين ظهرانينا، فكأنه يشعر شعورنا ويحس إحساسنا ويذوق ذوقنا، وكأنه ينطق بلسان كل واحد منا،

فلا نلتفت إلى وجه من وجوه الحياة إلا سبقنا إليه وصوّره لنا حتى كأننا نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا.

خطرت ببالي ثمانية أبيات من شعره الضخم وأولها:

هَوِّنْ على بصرٍ ماشقَّ منظرُهُ فإنما يقظاتُ العين كالحُلم

فلا أشاء أن أجد في هذه الأبيات من ضروب العزاء والنصيحة والتجربة إلا وجدته، ولكن البيت العظيم الذي رأيت فيه سر مشاكل البشرية في سوء التفاهم إنما هو البيت الآتي:

سبحانَ خالق نفسي كيفَ لذتها فيما النفوس تراهُ غايةُ الألَم

إلا أن هذا البيت إذا نظرنا إلى ظاهر معناه واقتصرنا على هذا النظر وحده فلا نهتدي إلى عظمته، فالمتنبي يتعجب من أن الله جعل لذته في أمور من الدنيا لا يرى غيره فيها إلا غاية الألم. ليس في هذا المعنى الظاهر شيء ذو شأن، وإنما الشأن في المعنى الباطن، الشأن كلّ الشأن في تقليب الفكر في هذا البيت وفي حل عناصره، إنا نرى فيه صنفين من الناس: صنف يجدون لذة في أمر من الأمور وصنف يجدون الألم في الأمر نفسه، وإذا أمعنا في التدقيق وجدنا سوء تفاهم البشرية كلها في اختلاف نظر هذين الصنفين إلى الأمور!

النقاد

١٩٥١/٥/٧

سلمى الحفار مع نساء متفوقات

في اعتقادي أن كتب التراجم من أطرف الكتب التي تدخل السرور على القلوب، فإن القارىء يواجه فيها أصحاب السير مواجهة، فيقف على دقائق حياتهم وجلائلها، ويتغلغل في أمزجتهم وأخلاقهم وعقولهم، ويطلع على خصائص قلوبهم وأذواقهم وطبائعهم، وما مثل هذه الكتب إلا كمثل التصاوير في المتاحف، إنا لنلقي النظرة على الصورة، فنحيط من فورنا بجمال الأنف أو قبحه، وبقوة العين أو ضعفها، وبتناسب الجسم أو اختلاله، فإذا أعجبتنا الصورة وقفنا أمامها وأطلنا الوقوف، وتمتعنا من محاسنها، فلا نفارقها إلا وهي نصب أعيننا.

وإنما المهارة كل المهارة في التراجم وكتب السير أن يحسن الكاتب الاختيار، وأن يهتدي في حسن اختياره إلى أبرز الصفات وأدق المزايا في كل ناحية من نواحي تراجمه، فإذا اهتدى إلى هذا كله أو إلى ما يماثله ألقى الضياء عليه حتى تكاد الترجمة تنطق بنفسها، وإنْ هي لم تنطق بروعة البيان، فقد تنطق بمحاسن الصفات والمزايا حتى تدخل القلب وتتمكن منه.

ولقد أحسنت السيدة سلمى الحفار الاختيار في تراجمها التي

سمتها «نساء متفوقات»، فاهتدت إلى أشهر النساء، سواء أكن في آفاقنا أم كن من آفاق ثانية، وفطنت في اهتدائها إلى أدق الصفات فأفاضت في الكلام على هذه النساء بحيث يحيط القارئ بخصائصهن لأول وهلة، فتنشئ له هذه الإحاطة لذة لا تعدلها لذة، ويصير الأمر بعد هذا كله إلى صداقة وثيقة الأواصر بينه وبين هاته النساء.

لم يخطئ من يرى أن من شروط التراجم أن يكون بين كاتبها وبين أصحابها صلة روحية، حتى يكون كلام الكاتب بالغاً من القلب كل مبلغ، ولما قرأت هذه التراجم التي وضعتها السيدة سلمى الحفار، تبين لي أن الذي حملها على وضعها إنما هو الاتصال الروحي الذي أشرت إليه، فكأنها تحس بما تتحسس به كل واحدة من صاحبات هذه التراجم، وكأنها تذوق ما تذوقه كل سيدة منهن، والخلاصة كأن السيدة سلمى الحفار تعيش مع النساء المتفوقات في نظام واحد، وأفق واحد، فإن صلتي بوالدها من جهة وبزوجها من جهة ثانية، قد مهدت لي السبيل إلى معرفة كثير من محاسن حقائقها، فكنت كلما قرأت سيرة من سيرها وقفت في أضعافها على صفات كأنها صفات السيدة سلمى، فإذا وصفت سيرة سيدة من السيدات فكأنها تصف سيرتها نفسها، أو كأنها ترجو أن ترزق ما رزقته صاحبة السيرة من وجوه الكمال.

إني أجد في أول صفحة ترجمة شقيقة زعيمة الهند: «فيجايا لالشيمر باندیت». وأجد في هذه الترجمة، أنها أقدر وأجمل سيدة

تفوقت في المسرح الدولي. لقد استوقفتني هذه العبارة قليلاً. فقد وجدت فيها بعض التشابه بين السيدة باندیت والسيدة سلمى، فإن السيدة سلمى الحفار تجد في نفسها بعض القدرة ويجد الناس فيها بعض الملاحة، وأظن أن القدرة من الفضائل وأن الجمال من نعم الله، فإذا تكلمت السيدة سلمى على قدرة بعض النساء وعلى جمالهن، فكأنها تتكلم على فضائلها نفسها. وهذا ما يزيد في اعتقادي أنها أحسنت الاختيار من جهة، وأنها من جهة ثانية ترى في تصاوير صاحبات التراجم شيئاً من صورتها في بعض الأحيان.

ولو أحببت أن أجد في ترجمة كل سيدة من السيدات اللواتي جاء ذكرهن في النساء المتفوقات مشابه للسيدة سلمى لوجدت، فبعد أن فرغت من ترجمة (باندیت) وجدت ترجمة (سلمى لاجرلوف). فأرى في هذه الترجمة العبارة الآتية: «دلت الناس على مواطن الخير والجمال وبعثت في النفوس الضعيفة القوة والإيمان».

وإني أعتقد الاعتقاد كله أن السيدة سلمى الحفار رأت في سميتها السويدية شيئاً في صورها، كأنها في كتابها هذا الذي عملته تدل الناس على مواطن الخير والجمال، وتبعث فيهم القوة والإيمان. وإني لا أكاد أصدق أن قارئاً من القراء يقرأ هذه التراجم فلا يجد في أكثرها الخير والجمال، أو لا يجد فيها ما يبعث فيه القوة والإيمان. أي سيدة تطلع على سيرة باندیت فلا تَعْظُم قوتها ولا يشتد إيمانُها، قوتها في الجهاد في سبيل وطنها وإيمانها بهذا الوطن.

ولو تتبعت التراجم كلها لوجدت في أكثرها التشابه بين السيدة سلمى وبين صاحبات التراجم، وإذا كنت لا أجد بعض التشابه فإني أجد الطموح إليه، وهذا الطموح في نظري فضيلةٌ من أنْقى الفضائل.

وأخيراً أحب أن أدون في هذه الخاتمة عبارة السيدة سلمى الحفار في أم كلثوم:

«أثبتت للشرق أنه باستطاعة المرأة أن تصبح فنانة وأن تظل محترمة».

سواء كان الفن في الموسيقى أم كان في الأدب، إنّ السيدة سلمى لم تكتب هذه العبارة إلا لتعرب بها عن صورتها، فقد استطاعت هذه السيدة الفاضلة أن تنصرف إلى الفن، فن الأدب، وأن يزيد هذا الانصراف في احترامها، والنساء اللواتي عرفن أن الفن يعمل فيهن عمله قليلات، والسيدة سلمى في مقدمة السيدات اللواتي يهتززن للفن على أنواعه، فن الموسيقى، والتصوير والأدب. وإني لأستشهد بموقف من مواقفها، فقد كنت أروي لها بمحضر من والدها وزوجها وشقيقها قصة أسدين: واحد في قفص، مثقل بقيوده، وواحد نراه بحريته يملأ الغاب بزئيره، والقصة فيها مغزى من المغازي صادف هوى في فؤادها، فبلغت هذه القصة من السيدة سلمى كل مبلغ، حتى صفقت بيديها وفحصت الأرض بقدمها، فعلمت حينئذ مقدار تأثير الأدب في قلبها، ومبلغ اهتزازها للصور

الأدبية التي توافق ذوقها وشعورها ومزاجها، وتحقق عندي أن الفن جزء من نفسها، من لحمها ودمها وعظمها.

أرجو أن لا يجد القارئ في هذه الكلمات المختصرة روح الغلو. فما قلت إلا الذي علمته والذي شعرت به، وقد أكون مخطئاً في علمي وشعوري، ولكني صادق في التعبير عنهما، على أني إذا تركت السيدة سلمى الحفار وشأنها وفصلتها عن كتابها (نساء متفوقات)، فإني أجد أن هذا الكتاب من أطرف الكتب التي تشتمل على صور كثيرة من الفضائل في كل باب من الأبواب، في الإيمان بالوطن، والفناء في الأدب، والعبقرية في الفن، وما شابه هذه الأمور. ولست أظن أن وقت القارئ يضيع في قراءة كتاب على هذا الشكل فيه الشيء الكثير من ذوق الكاتبة ومن فائدة التراجم.

الأنوار
١٩٦١/٥/٢٨

أدب الصحراء

في خلال شهر رمضان الماضي دعت دار الإذاعة اللاسلكية في القدس ثلاثة من أدباء سورية ولبنان، هم: الأستاذان شفيق جبري وسامي الكيالي والشيخ مصطفى الغلايني، ليلقي كل منهم سلسلة من الأحاديث. وكان «أدب الصحراء» الذي ننشره اليوم، أحد أحاديث أديبنا الكبير الأستاذ شفيق جبري، التي نالت إعجاب المستمعين واستحسانهم في البلاد العربية كلّها:

من كلام بعض الإفرنجة: حب الماضي مولود في الرجل، وإذا بحثنا عن السبب الذي من أجله نرى أخيلة البشر بمجامعها، الزاهية منها والذابلة، الكئيبة والفرحة، تلتفت إلى الماضي، وتتطلع إلى الخوض فيه، وجدنا أن الماضي إنما هو نزهتنا الوحيدة، والمكان المفرد الذي نستطيع فيه الإفلات من مضاجرنا ومن آلامنا ومن أنفسنا.

فما أكثر المضاجر والآلام في يومنا هذا! ما أمس حاجتنا إلى الهرب مما يقلق أنفسنا ويؤلمها في حرب، ما عرف البشر مثلها في تأريخهم! فلنجهد في هذا المساء في التفتيش عن بقعة من ماضينا نعيش فيها ربع ساعة أو عشرين دقيقة، لعلنا نجد في هذه البقعة

عبرة لنا أو فرجة أو فائدة، وأظن أن أفضل بقعة نفزع إليها في مثل هذا الوقت إنما هي هذه البقعة التي انحدر إلينا من أفيائها أدبنا ولغتنا وعروبيتنا، فلنعاشر قليلاً أولئك الذين أورثونا هذا الأدب وهذه اللغة وهذه العروبية، فلنعاشرهم في براريهم المظلمة؛ وآفاقهم العابسة، وسمائهم المتجهمة، وأرضهم القاحلة، ولنتمتع من هذه العبرة التي ما عرف التاريخ أجلَّ منها، لنتمتع من هذا النور الذي انبثق من الظلام، ومن هذا المرح الذي خرج من العبوس، ومن هذا البِشْر الذي تدفَّقَ من التجَهُّم، ومن هذا الخِصب الذي جاء من الجَدْب.

فلنعش في الجاهلية قليلاً، لعلنا نستريح من حضارة غلب العلم فيها على الأخلاق، فكانت غلبته سبباً في فناء الناس وتهديم المدن، وتقسية القلوب، لنرجع إلى ماضينا البعيد.

كُتِبَ لي من سبع سنين أن أجول في طائفة من جزيرة العرب، فذهبت من دمشق إلى مكة على طريق بغداد ونجد، فكأني في هذه الرحلة القصيرة انتقلت إلى الماضي، فعشت في الجاهلية، فأدركت جملة من الأسباب التي دفعت شعراءها إلى هذا النحو من الأدب المتناهي إلينا، ولست آسف على هذه الرحلة على الرغم من متاعبها.

قد يطول بي الكلام على هذه الصحراوات التي لا يكون فيها الإنسان إلا أقل من قطرة في البحر، وإذا رجعت إلى الدفتر الذي

دونت فيه بعض خواطري. فلا أجد فيه إلا صوراً تدل على وحدة الحياة في الصحراء، وحدة في كل شيء، في السماء والأرض والعشب والإبل والجبال وغير ذلك، لا تأخذ العين في هذه الوحدة إلا إبلاً مبعثرة، ومضارب مبعثرة، وتعاشيب مبعثرة، في صحارى لا ترى أولها ولا تهتدي إلى آخرها، وكنت في كل دقيقة في هذه القفار أرجع بذهني إلى الماضي، إلى الجاهلية، وأقول في نفسي: كيف نستطيع أن نفهم روح الجاهلية إذا لم نطف في جزيرة العرب ونر كل بقعة من بقاعها، فنرى وحشة الصحراء في الليل وكآبتها في النهار. فإذا طفنا هذا المطاف، أدركنا السر في تغني شعراء البادية بنجوم الليل لرهبة هذا الليل، وأدركنا السر في أيام العرب ووقائعها، ولم نعجب من اقتتالها في جاهليتها على ماء أو على نجعة أو على فرس أو على أشباه هذا كله.

من محاسن حظي أني عشت في الجاهلية أياماً قلائل، فشقيت شقاوتها من قلة الماء واستوحشت وحشتها من رهبة الليل، وتمتعت من قليل من نباتها الذي تمتعت منه، فأوقدت هذا العرفج على مقربة من حائل أي من جبلي طيىء: أجأ وسلمى، واستدفأت به في رفيف الفجر، وشممت رائحته الطيبة.

لقد فاجأتني الرحلة مفاجأة، فما تهيأت لبغتتها، فلما ضربت في طائفة من الأرضين، ورأت عيني صفات هذه الأرضين في الاتساع والاستواء والبعد والغلظ والصلابة والسهولة والحزونة والارتفاع

والانخفاض وغيرها من الصفات، لما جمع لي جزء من الجزيرة فأحطت بعض الإحاطة بيسير من رمالها وجبالها وترابها وغبارها ورياحها وآبارها وبرقها ورعدها ومطرها ونباتها، لما ظفرت بهذا كله، دهشت كل الدهشة وحرت كل الحيرة، فما كدت أخرج من سواد العراق، من ظلال هذا النخيل المنبسط على ضفاف دجلة والفرات، حتى انقطعتُ عن كل حضارة وعن كل عمران فلم أر ماء ولا شجراً ولا نباتاً ولا حيواناً ولا جناً ولا إنساً، ولكني رأيت في وحشة هذه الصحاري والبراري صورة الجاهلية وصورة أدبها في أيامها ووقائعها، فلولا نجد وصحراواتها ما عرفت السر في كثير من شعرنا الجاهلي، ولولا مداخل المدينة ومكة، لولا هذه الجبال السود الرهيبة ما عرفت قدر عبقرية سيدنا محمد بن عبد الله.

فأعظم شيء قيد خاطري في هذه القفار التي قطعتها نشأة شعر الجاهلية ونشأة محمد بن عبد الله. لم أعجب من شيء في هذه الرحلة عجبي من هذين الأمرين الجليلين، كيف تُنبت هذه الصحاري والبراري شعراً مثل شعر الجاهلية، وكيف ترسل جبال مكة نوراً مثل نور محمد بن عبد الله!

لقد نشأ شعر الجاهلية في صحراوات مجردة عن كل حياة، شمس محرقة وسهول من رمال يضيع فيها النظر، من دون أن يقف فيها على أي شيء حي، لا يتنفس فيها المسافر تحت ظل من الظلال، فلا يصحبه فيها إلا ظله وحده، عزلة تامة أرهب من وحشة

الغابات، إذا امتد ضياء النهار كان الضياء أَكْأَبُ من ظلام الليل!

في بيئة مثل هذه البيئة نشأ شعرنا الجاهلي، فإذا عرفنا قليلاً من خصائص هذه البيئة فلا نعجب مما ترامى إلينا من أيام العرب ووقائعها، ومن الشعر الذي أوحته هذه الأيام وهذه الوقائع؛ إن هذا الشعر إنما هو مرآة صافية انعكس فيها قحط الطبيعة في كل شيء، فلولا معرفتنا بطبيعة هذه الأرض وبوحشتها ورهبتها، لعجبنا من وقائع العرب ومن أيامها، ومن الدماء التي سفكت فيها، ولقال كل واحد منا كيف تقتتل العرب على ماء أو على نعجة أو على فرس وغير ذلك.

إلا أنا إذا رأينا بأعيننا قلة الماء، وقحط الأرض ونفع الخيل في مسافات يحاول الإنسان أن يجتازها فتنقطع به الأسباب، بطل عجبنا من اقتتال عرب الجاهلية على ما اقتتلت عليه، فإن صحراوات لا يعرف أولها ولا آخرها ليس بغريب أن يكون فيها للإبل وللخيل منزلة سامية، وأن تظهر آثار هذه المنزلة على الشعر الجاهلي، وإنّ أرضاً يقل ماؤها، ويقل عشبها ليس بعجيب أن يتزاحم أهلها على الماء وعلى العشب فيها، وأن نرى صورة هذا التزاحم في شعرهم، فقد كانت الخيل والماء والعشب في كثير من الأحيان سبباً في حروب الجاهلية، وكانت هذه الحروب مادة للشعر الذي وصل إلينا.

كُتُب الأدب حافلة بذكر أيام العرب ووقائعها، فلا يتسع حديثي للإفاضة فيها، وحسبي أن أشير إلى قليل منها، فمن هذه

الوقائع حرب داحس والغبراء، بين عبس وذبيان، فهل داحس إلا اسم فحل لقيس بن زهير؟ وهل الغبراء إلا اسم فرس لحمل بن بدر؟ حسبنا أن نذكر أن هذه الحرب بقيت بين القبيلتين بسبب الفرسين أربعين سنة، لم تنتج في خلالها لعبس وذبيان ناقة ولا فرس بسبب اشتغال القبيلتين بالحرب حتى قال عنترة في الفرسين:

فليتهما لم يجريا قيد غلوة ... وليتهما لم يرسلا لرهان

فلولا معرفتنا بامتداد الصحراء، وبمنافع الخيل فيها، ما كنا نفهم سر اقتتال العرب فهيا مدة أربعين سنة على فرسين، وما كنا ندرك روح الشعر الذي صدر عن هذا الاقتتال.

وكما كانت الخيل سبباً في بعض حروب الجاهلية. فكذلك الماء، فقد كان سبباً في هذه الحروب. من أيام العرب يوم سفوان، وهل سفوان إلا اسم ماء التقت عليه بنو مازن وبنو شيبان فزعمت بنو شيبان أنه لهم، وأرادوا أن يجلوا تميماً عنه فاقتتلوا قتالاً شديداً، فظهرت عليهم بنو تميم وذادوهم عن الماء حتى وردوا ماء آخر، وفي ذلك يقول الودان المازني:

رويداً بني شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غداً خيلي على سفوان

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى ... إذا الخيل جالت في القنا المتداني

وكذلك الأرض، فقد كانت مادة شعر الجاهلية، من ذلك الحرب بين بكر بن وائل وبين بني تميم. فحشدت تميم وحشدت بكر، وزحفت كل قبيلة لثانية للاقتتال على الأرض فاقتتلوا اقتتالاً

شديداً وقيل شعر في هذه الوقعة.

فالذي نراه من هذا كله أن صحراوات الجاهلية على قحط أرضها، وعلى عبوس سمائها وكآبة نهارها ووحشة ليلها، كانت مادة وحي للشعراء. وإذا تعقبنا شعر هؤلاء الشعراء ودققنا في الذي اشتمل عليه من إشارة إلى السرى وإلى حدة البصر، والى الخبرة بالأرض، والى التغني بالإبل وبالخيل وبالمجاهل والفلوات والسيوف والرماح ونجوم الليل ومعرفة الطرق وغير ذلك من الأمور، وجدنا إن هذا الطراز من الشعر اقتضته طبيعة الصحاري التي عاشت فيها عرب الجاهلية فإذا صح إن الأدب إنما هو صورة الجماعات، أي لابد من أن تعمل فيه عوامل شتى، عامل البيئة والزمن والثقافة والتاريخ والاجتماع وما شابه ذلك، فأدب الجاهلية مرآة انعكست فيها العوامل التي عملت في هذا الأدب، وإذا وجدنا في الشعر الجاهلي شيئاً نقبض عنه في هذا العصر فالسبب في ذلك يرجع إلى أنا نحكم عليه دون أن نراعي في عصرنا هذا انقلاب الأفكار وتبدل وجوه الحياة ومذاهبها، فكأنا لا نريد أن نلتفت إلى كرور الأيام، وأن نشعر بتفاوت الأحوال بين سنة وسنة، إننا نطلب من أدبنا الجاهلي ما نطلبه من أدبنا العباسي من غير أن نلاحظ أن أدب الجاهلية اقتضته عوامل شتى وأحوال مختلفة، فقد ظهر هذا الأدب في بيئة عرفنا قليلاً من صفاتها، فلا يمكن أن تخلق هذه البيئة أدباً في غير الصورة التي خلقته فيها، ولكن لتراخي الزمن بيننا وبين الجاهلية أصبحنا لا ندرك أسرار شعر تلك العصور، فإذا قربنا

المسافة بيننا وبين الصحراء فانتقلنا إلى هذا الأفق الذي نما فيه شعرنا الجاهلي ونظرنا في خصائص هذا الأفق من قلة الماء والخضرة، ومن شدة حر الصيف وبرد الشتاء، ومن عبوس السماء وقحط الأرض، ووحشة الحياة وتشابة صورها، إذا انتقلنا إلى جوف الصحراء تغير نظرنا، وعلمنا أسرار شعر الجاهلية، ولم نستغرب شيئاً من صوره وأنماطه.

هذا شيء وجيز عن الصحاري التي عاشت فيها عرب الجاهلية، وإذا رجعنا من رحلتنا القصيرة فلا نرجع من دون نتيجة، وقد تكون هذه النتيجة عجيبة، فالذي رأيته أن العرب أعطوا جزيرتهم أكثر مما أعطتهم، أعطتهم الشِّيحَ والقيصوم والسِّدر والعرْفَجَ والسلم والرَّند والعَرار فجعلوا من هذا النبات حدائق غلباً في شعرهم، وجبال مكة أعطت محمد بن عبد الله ظلاماً وخشونة فجعل من الظلام نوراً ومن الخشونة لِيناً.

هذا أبلغ ما رأيته في طائفة من جزيرة العرب التي كتُب لي حظ في زيارتها، وهذا أبلغ ما عرفه البشر في تاريخهم. فكيف ينشأ شعر في مثل صحراوات الجاهلية؟ وكيف يطلع نور مثل نور محمد بن عبد الله في ظلام جبال مكة؟

اللهم إنّ في ذلك لآية من آياتك الباهرات.